1ème, année No 928

Le Caire 16 — 4 — 1951

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٩٢٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ رجب سنة ١٣٧٠ — ١٦ إبريل سنة ١٩٥١ — السنة التاسعة عشرة »

١٠- الدين والسلوك الانسانى

للاستاذ عمر حليق

التعاليم الدينية والقانون :

القوانين الخلقية لجماعة تؤلف جزءاً أصيلا جوهريا للنظام الاجتماعى الذى تعيش عليه والذى يستوحى الفرد منه سلوكه ويعتمد عليه فى صلاته مع الناس . فالقوانين الخلقية هى أسبق من العادات والتقاليد والنظم والشرائع القانونية (المدنية) فى توجيه السلوك الإنسانى . وقد يأتى حين من الدهر تمتزج فيه هذه العناصر جميعها لتؤلف الأسس الجوهرية للنظام الاجتماعى ، ولكن القوانين الأخلاقية تظل محتفظة بمكانتها الرئيسية ، مهيمنة على بقية العناصر التى يتألف منها النظام الاجتماعى (١)

والدارس للمجتمعات البدائية يدرك كيف أن القوانين الأخلاقية (الدينية) نجد من يعبر عنها فى الحكم والأمثال التى تلعب دوراً كبيراً فى تلوين السلوك الإنسانى بطابع الرشاد والطهارة والعمل الصالح

فالحكم والأمثال والأقوال السائرة نوع من التفلسف يستمد أصوله من القوانين الدينية؛ وهذه كما رأينا فى مقال سابق من هذا البحث تستند إلى الغريزة الروحانية التى تعيش فى كيان الإنسان

فالحكم فى القرآن والحديث مثلا على نوعين : —

(١) نوع يعالج الأخلاق والفلسفة العملية فى السلوك الإنسانى

(٢) نوع يتوسع فى الوعظ والإرشاد ويلجأ إلى الأمثال الشعبية المستمدة من صميم الحياة اليومية وعبر الأيام والحوادث قديمها ومعاصرها ليعزز الحكمة الخلقية والفلسفية القرآنية العملية بشروح ميسرة مبسطة تجد سبيلها إلى قلوب الخاصة وعقول العامة من الناس فى لغة مستمدة من شتى أوجه النشاط الإنسانى الدنيوى

فالنوع الأول إذن يعالج المشاكل الخلقية الروحية على أسس منطقية، العقل والروح من أسلحتها . والنوع الآخر يتم الاجتهاد فيضرب الأمثال بالحياة العملية وعبر التاريخ ، ويجمعها فى أسلوب محسوس ملموس ، الإقناع فيه يستند إلى اختيار الناس وما يتوارد ونه من أنباء وحوادث، وما يلاحظونه من خير أو شر فى نشاطهم الدنيوى

وكلا النوعين فى الإسلام متمم للآخر، وكلاهما قوام على نشر رسالة الدين على أوسع ما يكون الانتشار ، وحافظ للأسس الجوهرية والتفصيلية للوظيفة الدينية التى جاء بها القرآن وشرحها

(١) Williams Religion and Social Organization

الحديث وتراث السلف الصالح

ومن هذا التمازج استمد أهل الاجتهاد العون على استنباط التشريع الذى صاحب نمو الجماعة الدينية واتساع حاجاتها الدنيوية، وتطور أوضاعها الاقتصادية والسياسية، وازدياد حياتها الاجتماعية تعقداً وتشويشاً. وهذا التطور الطبيعى الذى لا مفر منه هو الذى استدعى أكثر فأكثر تحديد العقيدة الدينية، والسعى لإحاطتها بسياج من الوقاية تحول دون التحريف والتأويل، وتستهدف صيانتها من سوء الاجتهاد الذى كثيراً ما يلتبس عليه تحديد جوهر العقيدة فى خضم هذه الذخيرة الطائلة من الحكم والأمثال والعبر الذى استشهد بها القرآن والدين والسلف الصالح فى معرض شرحهم لذلك الجوهر

ولعل هذا الالتباس هو السبب فى ضلال بعض الكتاب المعاصرين الذين يحاولون تطبيق النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعاصرة على تعاليم الإسلام، أو تبرير هذه النظم على ضوء الحكمة والفلسفة الإسلامية

فهذا النوع من الاجتهاد يتطلب تحفظاً بالغاً فى البحث والاستقراء. والمنهج العلمى الصادق لا يقتبس الفقرة من سجل مجردة عن المعنى الشامل الذى استعملت فيه تلك الفقرة، والأمانة فى الاقتباس والاستشهاد تستوجب استعراض المجال الواسع الشامل الذى جاءت منه تلك الآراء أو المعانى أو الحكم التى اقتبست واستشهد بها. فبعض كبار الأئمة مثلا يراعى شرح أسباب نزول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية قبل أن يجيزوا بفتوى أو يدلوا برأى له بالعقيدة الدينية مساس مباشر

ولقد رأينا أن الاجتهاد والتشريع يصاحبان نمو الجماعة وتطورها التاريخى، فينشأ إلى جانب الفلسفة الدينية بمعناها الشامل فلسفة اجتماعية تستمد عناصرها من التطور الجديد وما يخلقه من محاسن أو مساوئ. وقد تكون التعاليم السماوية قد حددت وظيفة الدين إزاء هذه العناصر المستجدة تحديداً بيناً واضحاً، وفى مثل هذه الحالة لا يمكن للتعاليم السماوية أن تتحمل سوء الاجتهاد. وقد يحدث أن تكون إشارة التعاليم السماوية إلى العناصر المستجدة فى التطور الاجتماعى إشارة مستترة؛ التعرف عليها يتطلب مزيداً من الاجتهاد والبحث والاستقراء. ومثل هذا الوضع يلقى على أمانة المجتهد والباحث عبئاً جليلا لا يكفى للقيام به مجرد الاقتباس والاستشهاد المجرد من المعنى الشامل للنص الأصيل كما يبدو مع الأسف عند كثير من الذين حاولوا معالجة التطور الاجتماعى على ضوء التعاليم السماوية. ودراسة النصوص الدينية فى ناحيتها الاجتماعية عمل خطير، والاستعداد للقيام به يتطلب — بالإضافة إلى إخلاص النية والنزاهة العلمية وصواب منهج البحث — تعرفاً على طبيعة المجتمعات التقليدية التى نزلت عليها تلك التعاليم. ولقد وفر علم الأنثروبولوجيا لنا فى هذا العصر أسلحة نستطيع به أن ندرس — على قدر الإمكان — عقلية تلك المجتمعات ونظمها وأساليب تفكيرها ومعيشتها وألف نوع ونوع من هذه الميزات التى تتباين بها المجتمعات الحديثة عن المجتمعات القديمة

والسلوك الإنسانى فى جوهره متماثل فى الجماعات البدائية والجماعات المتقدمة وإن اختلفت أساليب ذلك السلوك بفضل التطور الحضرى. ووظيفة الدين الاجتماعية فى جوهرها لم تتأثر بالتطور الحضرى، إذ أن الدين — كما رأينا فى مقال مضى من هذا البحث — من الخصائص الغريزية التى ولدت فى النفس البشرية كالأكل والشرب والتزاوج. وقد ارتقت أساليب الناس فى إشباع هذه الغرائز الجسمانية بارتقاء الحضارة، إلا أن جوهر تلك الغرائز لا يزال كما كان عليه منذ طرد آدم وحواء من الجنة. ومثل هذه الحقيقة تنطبق بشكل أدق وأصدق على الحياة الدينية الروحانية والحياة الدينية فى جميع مراحل التاريخ الدينى، مستندة إلى اتجاهين كلاهما يعزز الآخر

أولهما: — التطلع إلى الخالق الأعظم الذى بيده الحياة — والموت وهو على كل شئ قدير

وثانيهما: — الامتثال إلى تعاليم ومثل وقيم أخلاقية توجه السلوك الإنسانى وتعده للحياة الصالحة السعيدة فى الدنيا والآخرة. ومن الصعب جدا كما قال الأستاذ (برات) أن نفرق بين هذين الاتجاهين (١)

فإذا سمحنا لأنفسنا بأن نصف الاتجاه الأول بأنه العقيدة

(١) Pratt Religious Consiousness

الدينية ، والثانى بأنه الوظيفة الاجتماعية للدين، فإن على الباحث فى وظيفة الدين الاجتماعية أن يراعى أشد المراعاة تمازج ذينك الاتجاهين ، وإلا فإن أسلوبه فى البحث لا يحقق النفع ولا يتمشى مع حقائق الوضع الاجتماعى ، ولا يأخذ بعين الاعتبار جوهر السلوك الإنسانى بمعناه الشامل وهو أصدق المعانى وأقربها إلى الحقائق الاجتماعية التى شرحها لنا (دركهايم)

إذن فاستنباط التشريع الجديد من التعاليم السماوية واجتهاد الباحثين فى علاقة تلك التعاليم بالحقائق الاجتماعية يجب أن يتقيد بهذا التمازج الطبيعى الذى لا مفر منه بين العقيدة الدينية والحقيقة الاجتماعية

ويمثل هذا المنطق يمكننا أن نعالج موقف الجمود الذى يقفه بعض حفظة الدين فى العصر الحاضر إزاء التطور الاجتماعى الذى صاحب نمو الجماعة الدينية . فدراسة الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المعاصرة محاسنها ومساوئها يستوجب على حفظة الدين أمرين : —

أحدهما التسلح بعلوم مستجدة كعلم الأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعى وعلم التاريخ الثقافى وغيرها من ألوان المعرفة الحديثة المتشعبة لزيادة تبحرهم فى العلوم الدينيه وتسلحهم بألسنة العلم الحديث لنشرها بين الناس والدفاع عنها إزاء العبث وسوء الاجتهاد . والآخر يستوجب تفهماً صادقاً للمشاكل الجوهرية فى التطور الذى ألم بحياة الجماعة فى شتى أوجه النشاط الإنسانى . فتحت لواء هذا التطور تنطوى أصناف مع المحاسن والمساوئ خلقتها الفلسفة والثورات الصناعية وتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية وماخلفته عن عقد ومشاكل ، وما وفرته من أسباب المتعة والإغراء ومن أسباب التفكير الحديث ، وكل ذلك خصائص لم تختبرها المجتمعات القديمة التى نزلت عليها التعاليم السماوية فى العصور الغابرة . ولما كان الإسلام يصلح لكل زمان فإن وزر القصور فى إعادة فتح باب الاجتهاد بأسلحة العلم الحديث وزر خطير ، والقصور عن القيام به مع القدرة عليه إثم عظيم

وخلاصة القول بصدد هذه النقطة من البحث أن فى علوم العصر معاول جديدة لتفهم الحقيقة الدينية ووظيفتها الاجتماعية فى عالم مضطرب ، ومن العبث الذى لاطائل منه أن ينساق المصلحون والمشرعون الاجتماعيون للنيل من العقيدة الدينية والتصدى لحقائقها . فهذه الحقائق تستمد وجودها من الغريزة الدينية ، والغريزة الدينية تلعب دوراً رئيسيا فى أى لون من ألوان الإصلاح الاجتماعى بمعناه الشامل

ومن العبث أن نحارب الحياة الدينية لأن بعض مظاهرها قد تحمل ألواناً من الشذوذ لا يستسيغه السلوك الإنسانى فى عصر الرادار والطاقة الذرية . فالحقائق الاجتماعية التى تركن وراء تلك المظاهر لم تندثر ولن تندثر لأنها سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنته تبديلا . والإصلاح الصادق النافع لا يستهدف معالجة الظواهر وإنما يدلف إلى الجوهر ؛ عندئذ يسهل التوجيه وتزداد الرغبة فى الإصلاح بين المصلح والذى يرغب فى إصلاحهم

وهذا العبث يصح إطلاقه كذلك على جمود بعض حفظة الدين فى التهيب من الفصل بين سلامة العقيدة الدينية وبين الاجتهاد فى إعادة الدرس فى وظيفة الدين الاجتماعية على ضوء التطور الذى استجد فى حياة الجماعة الدينية المعاصرة . فجوهر العقيدة الدينية لا خوف عليه لأنه من الغرائز التى لاتندثر ، إنما الخوف أن يزداد نفور الناس من الامتثال إلى التعاليم الاجتماعية لتلك العقيدة فيفقد الدين إحدى دعائمه القوية وهى الوظيفة الاجتماعية التى هى جزء من ذلك الاتجاه المزدوج فى الحياة الدينية ؛ ألا وهو التطلع إلى الخالق عز وجل كمصدر للحياة الروحانية ، والسير على الأرض بنور تعاليمه السماوية

نيويورك « ابحث صلة » عمر مليبى

ظهر المجلد الثالث
من كتاب
وحى الرسالة
فصول فى الأدب والنقد والسياسة
والاجتماع والقصص
للأستاذ احمد حسن الزيات